طوق النجاة الخامس

نحن والآخر

بين الكائن وما يجب أن يكون

إن كان من حقك أن تكون أنت ، فإن من حقه أن يكون هو ، ولكن ليس من حقك قهره ليكون أنت وليس من حقه قهرك لتكون هو ، فالذات لاتتغير بالقهروإنما بالمثل والقدوة .

نحن والآخر
بين الكائن وما يجب أن يكون

الإخوة الأحباب عشاق الوطن .. تناولنا معًا فيما سبق أربعة أطواق للنجاة تضمنت مجموعة من الرؤى الإصلاحية فى المجالات الاجتماعية والتعليمية والدستورية والتنظيمية والاقتصادية ، وهى فى مجملها تمثل مجموعة من المكونات التى تتفاعل داخل إطار واحد ألا وهو ما نطلق عليه السياسة الداخلية .

وهذه الأطواق على تعددها وما أراه فيها ولها من أهمية قصوى ، إلا أننى أراها تظل قاصرة عن انتشال الأمة من غرق محقق فى دوامات العولمة بكل ما فيها من قهر ومذلة ما لم يتم تدعيمها ووصلها بإطار آخر أراه الأخير فى هذه السلسلة المترابطة من أطواق النجاة أو التى ينبغى أن تكون مترابطة كى تتحقق النجاة وإلا فلا .

ووصل لمن شاء بما ورد عاليه ، حيث كتبت أن أطواق النجاة السابقة تمثل مجتمعة السياسة الداخلية وأنها بحاجة إلى تدعيم موصول بطوق آخر أخير أراه يتمثل فى السياسة الخارجية التى تتعدد مهامها ولكنها تبقى على تعددها نابعة من مصدر واحد هو المسئول عن رسم ملامحها وتحديد مدى حركتها وقدرتها على التأثير ، وهذا المصدر الواحد يتمثل فى علاقاتنا مع الآخر .

والآخر الذى أعنيه هو كل من يختلف عنا فى الدين أو اللغة أو كلاهما معًا ، وثمة فارق أكيد فى طبيعة العلاقة التى يمكن رصدها بين الدول التى تشترك فى الدين أو اللغة أوكلاهما

وبين الدول التى تشترك فى الإنسانية ، فبينما تكون الصلة والتواصل ميسورة وممهدة كليًا أو جزئيًا حال وحدة الدين واللغة أو أيهما ، فإن الصلة والتواصل يبدوان أمرًا عسيرًا ووعرًا فى غيبتهما ومن هنا كان لزامًا على الطرفين بذل المزيد من الجهد لإقامة جسور قوية ودائمة وممهدة للتواصل ، وهى لن تكون قوية ودائمة وممهدة مالم يتم تشييدها على أسس راسخة وحقائق صادقة يقبلها الطرفان ترجمانًا بينهما .

وبداية فإننى لن أتناول الآخر بمعناه الأوسع المستوعب لكل من يختلف عنا فى العقيدة واللغة ، ولكننى سأتناول الآخر بعد اختزاله فى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ، وهو اختزال لن يخل كثيرًا بالشمول لعدة أسباب أهمها :

(١) أن أمريكا هى رأس الكتلة الدولية التى تنادى بالعولمة ، والعولمة كما أفهمها تعنى أمركة العالم ، وأمركة العالم ليست كما يفهمها الساذجون من الحكام والمحكومين على أنها تعنى جعل العالم نسخة من أمريكا ، إذ أن أمريكا ليست بالسذاجة التى تجعلها تسعى وتسعد بإيجاد منازع لها على قمة العالم حتى وإن كان من أقرب حلفائها ، لذا فإننى أفهم أمركة العالم على أنها تخليص العالم من معوقاته الثقافية والحضارية والعقائدية أى تخليصه من إرادته التى تحول دون قبوله الانضمام إلى قطيع العبيد والجوارى الذين يخدمون فى البلاط الأمريكى ،وبمعنى أعمق فإن أمريكا حققت من التقدم العلمى والتكنولوجى ما جعلها تطمح إلى إدارة العالم بالريموت كنترول من داخل البيت الأبيض بل وترى أن هذا حق لها .

(٢) أن هذه الكتلة الأمريكية هى التى تبنت استراتيجية وضع الأمة الإسلامية هدفًا ثابتًا لمرمى سياساتها الفوقية القمعية وهمًا منها بأن عقيدة هذه الأمة تحرضها على معاداة الآخرين وإرهابهم .

(٣) أن الأمة الإسلامية رغم جراحها التى تنزف من طعنات الداخل والخارج فإنها لازالت أجهل وأضل من أن تعى مايجب علمه وعمله لمداواة الجراح وإيقاف النزيف .

من هنا أيها الإخوة كان من واجبى إتمامًا لمنهج هذا الكتاب ومحاولة لبلوغ أهدافه أن أتناول علاقاتنا مع الآخر بمزيد من العناية تفنيدًا لأباطيل ماهو كائن ووصولاً إلى ما يجب

أن تكون عليه هذه العلاقات .

وحيث إن العلاقات الناجحة ما هى إلا حالة تواصل بين طرفين ــ أو أكثر ــ وحيث أننا نهدف إلى التواصل فلا مناص من توفير مقومات النجاح لعلاقاتنا بالآخر ، وأرى أن أهم هذه المقومات تتمثل فى حتمية أن يتعرف كل طرف على حقيقة ملامحه وحقيقة ملامح الآخر وهو ما ليس بالواقع .

وأظننى أستطيع أن أؤكد ــ آملاً من الكثيرين مشاركتى يقينى ــ بأننا جميعًا نرتدى أقنعة مزيفة وقبيحة ، وأنها لا تحمل منا ملمحًا ولا شبهًا ، وأننا نحن والآخر تبعًا لذلك بات كل منا ينظر إلى صاحبه نظرة ارتياب وتوجس واستنكار واحتقار دونما أن يحاول ولو لمرة واحدة أن يقف أمام مرآة صافية كى يرى فيها صورته المزيفة القبيحة التى يراها الآخر ، وهو يقينًا إن فعل فسوف يدرك ما لم يدركه من حقائق أهمها أنه ليس جميلاً كما كان يظن وأن الآخر له كل العذر فى نظرته المستريبة المتوجسة المستنكرة المحتقرة ، لأن هذا هو الواقع .. وجوه مزيفة قبيحة لا تعبر بصدق عن حقيقة كل منا وعن حظه من الجمال الذى أبدعه الخالق وأرشدنا إلى ضرورة التمسك به ، ولكننا شئنا القبح قلبًا وقالبًا ، وشاء كل منا أن يمنحه صاحبه مالا يستحقه من قرابين الولاء وأشعار المدح والغزل ، وهو ما لم يحدث وما لن يحدث طالما تمسك كل منا بواقعه وموقعه من الآخر ومن نفسه ومن الحق ، وفى هذا المعنى ثمة حديث قدسى نصه كالآتى :

يقول الله تعالى : «**يابن آدم ما تنصفنى ، أتحبب إليك بالنعم وتتمقت إلى بالمعاصى ، خيرى إليك منزل وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم يأتينى عنك كل يوم وليلة بعمل قبيح ، ياابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لاتعلم من الموصوف لسارعت إلى مقته**»

إذن فنحن أمة الإسلام نريد من الآخر أن يحترمنا وأن يحترم شريعتنا ، وهى أوهام لا حق فيها ، إذ أننا لا نحترم أنفسنا ولا نحترم شريعتنا ولا منطق فى أن نطالب الآخرين بفعل مانحن أولى بفعله ، فالآخر ــ وهو على حق فى هذا ــ يرانا أمة ضالة .. أمة يشيع فيها الفساد

وتفوح رائحته .. أمة أدمنت الديكتاتورية فى مختلف أوجه الحياة حتى اختلت فيها موازين القيم فصارت الأصول فروعًا والفروع أصولاً .. أمة تكاد تنفرد بالتخلف والفقر والجهل وتعجز عن مواجهتهم.. أمة تقيم للعراة شواطئًا ــ فوق الأرض التى وصفها قرآنهم بالمقدسة

ــ كى يدنسوها برذائلهم وخطاياهم المشفوعة بالعملات الحرة والعمولات القذرة.. أمة يكاد كبارها قبل صغارها يدمنون الخمر والميسر والرشوة . .أمة ترى مجدها وفخرها وعزها وعزتها فى التهلل والتهليل للعاريات والساقطات وفى الانتصارات الوهمية التى يحققها أبطال ملاعب اللهو واللعب وفى الإغداق والجود على هؤلاء وأولئك من خزائن المال والنجومية والصدارة بل واعتبارهم ثروات قومية وتوائم للحضارة .. أمة عقمت عن إنجاب أفذاذ من البنائين الحقيقيين للحضارة وإن أنجبتهم تجاهلتهم وهجرتهم أو دفعتهم دفعًا إلى هجرها .. أمة أوهام لا وقائع فهى لا تعرف ولا تعترف من الزمان سوى بماضيه لأن حاضره لا يعترف بها ولا يكاد يعرفها .. أمة تقول مالا تفعل وتفعل غير ما تقول .. أمة لا تتوانى عن ادعاء السيادة حتى وهى تتسول مقومات البقاء .. وإجمالاً فهى أمة لا تمل مناشدة العالم أن يحترم شريعتها وشرعيتها وقيمها وخصوصياتها وثقافاتها وهى أول من يهدم كل هذا بل ويدفع ثمن الهدم للهادمين !!!!!

إذن فالعذر كل العذر للآخر فى أن يرانا أمة قبيحة ، فهو يتعامل وفق ما ترى عينيه ــ وهما محقتان فيما تريان ــ فهذه هى صورتنا التى لا نعرفها لأننا لم نشأ منذ قرون طويلة أن نقف أمام المرآة لنرى ما يراه فينا الآخر ، ولنا عودة لتحديد ما يجب أن تكون عليه صورتنا ولكن بعد أن نصف للآخر ملامح صورته التى نراها ثم نقدم إليه النصيحة الصادقة دون التمادى دخولاً فيما يجب أن تكون عليه صورته ، إذ أرى أن حقوقنا تقف عند وصف ما تراه أعيننا وتقديم النصيحة لتبدأ حقوق الآخر فى تحديد ما يراه الأصلح لصورته .

إن الآخر كما أراه ليس جميلاً وإن كان فيه جمال !! وهذا ليس لغزًا ولكنه الواقع ، إذ أن الآخر فى ناظرى يبدو أشبه بإنسان ذى شقين لا يمت أحدهما للآخر بأية صلة ، فبينما يبدو نصفه الأيسر من أطراف القدم وحتى أطراف شعر الرأس فائق الحسن والجمال فإن نصفه

الأيمن يبدو من القبح إلى الدرجة التى تنفر منه العيون ، فبماذا يمكننا وصف هذا الإنسان ؟ أنصفه بالحسن ونظلم أعيننا ؟ أم نصفه بالقبح ونظلمه ؟ فى رأيى فإنه لا حق فى هذا أو ذاك ، وإنما الحق الذى يجب أن يعلمه الآخر هو أن نصفه القبيح يجعلنا نستاء من رؤيته ولا نحبذ الاقتراب منه ، ولنا فى هذا كل العذر وللآخر علينا حق فى النصيحة الصادقة والتوضيح .

دعونا بداية نقرر أن الآخر هو المسئول الأوحد عما هو فيه من قبح منذ تبنى لحياته نهجًا محددًا يقوم على مبدأ فصل الدين عن حياة السياسة وسياسة الحياة فيما يعرف بالتوجه العلمانى الذى يتوهم معتنقوه أن الحياة لا يمكنها النمو والتطور تحت مظلة سلطة الدين ــ وهى مغالطة كبرى ــ والحق أن الحياة لا يمكنها النمو والتطور تحت مظلة سلطة رجال الدين بينما من المؤكد أن بإمكانها النمو والتطور بل والبقاء الآمن تحت مظلة سلطة الدين ، إذ ثمة فارق هائل بين سلطة الدين وسلطة رجال الدين وهو نفس الفارق الذى يمكن استيعابه بين سلطة القانون وسلطة رجال القانون ، فبينما تعنى سلطة القانون أن للقانون سيادة على الجميع بمن فيهم رجال القانون فإن سلطة رجال القانون تعنى أن لهم سيادة على من سواهم من البشر بل وقد تمتد سيادتهم لتستعبد القانون ذاته ، لذا فإن سلطة الدين إنما تعنى اعتراف البشر بسلطة خالقهم عليهم وهى سلطة لا تجوز لبشر على بشر ، ويحضرنى حديث قدسى يحمل هذا المعنى ونصه ما يلى :

« إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد والآخر مذنب ، فجعل يقول: أقصر عما أنت ، فيقول الآخر : خلنى وربى ، حتى وجده يومًا على ذنب استعظمه ، فقال : أقصر ، فقال : خلنى وربى أبعثت على رقيبًا ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة ، فبعث الله إليهما ملكًا فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده (أى عند الله) ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى ؟ فقال : لا يارب ، قال : اذهبوا به إلى النار »

وخروجًا من هذه الدائرة التى تحتاج إلى المزيد من إعمال الفكر واسترسال القلم ، وحيث إنها ليست بيت القصيد وإنما بيت القصيد هو الاستناد إلى ما اتفقت عليه جميع

الأديان من نقاط تتمثل فى وجوب التزام محاسن الأخلاق واجتناب مساوئها ، إذ لن نجد ديانة تبيح الخمر والزنا والكذب والسرقة وخيانة الأمانة والعدوان والقتل وديانة أخرى تحرمها بل سنجد أن جميع الأديان حرمت سوء الأخلاق وأوجبت حسن الأخلاق .

والأخلاق كما أفهمها هى منظومة القيم التى يتم التعامل بها بين الأفراد والمجتمعات والدول ، وبالتالى فإننا مستندين إلى ذلك يمكننا التأكيد على أن الأديان نزلت لتنظيم حركة الإنسان فى مختلف أوجه الحياة وليس داخل دور العبادة فقط كما يدعى معتنقو العلمانية ، إذ أن الأديان لو كان الهدف منها هو ما يؤدى من شعائر عبادة فى المعابد والكنائس والمساجد لاقتصرت فى الإباحة والتحريم على ما يأتيه الإنسان من أقوال وأفعال داخل حدود هذه الدور فقط وبحيث إذا ما تجاوزالإنسان هذه الحدود كان له مطلق الحرية فى أن يأتى ما شاء من أقوال وأفعال حتى وإن نزلت به إلى قاع الحيوانية بل وتجاوزتها بإتيان ما يعف عنه بنى الحيوان من أفعال كاللواط والسحاق وشرب الخمر مثلاً ، وهذا بالقطع غير وارد فى حق الأديان التى نعلم منها أن ثمة آخرة سيحاسب فيها الإنسان عن أفعاله فى الدنيا ، والدنيا ليست قاصرة على دورالعبادة وإلا فبماذا نسمى حياتنا خارج هذه الدور؟!

إذن فالأديان هى مظلة للحياة فى كل مناحيها ، ومن الخطا الكبير فصلها عن الحياة أو فصل الحياة عنها وهو ما فعله مؤيدى مبدأ العلمانية التى أفرزت للحياة الاجتماعية مزيدًا من الجرائم والانحطاط الخلقى والرذائل والتفكك الأسرى والتفسخ الاجتماعى وما صاحب هذا وذاك من شيوع الأمراض النفسية بكل مسمياتها ورغم الحضارة المزعومة والتى نتباهى بمظاهرها الخادعة والمتنافية مع فطرة الإنسان ذاته فى يقينه بأنه المخلوق الأسمى والأرقى ، ووصولاً إلى إشعال الحروب وإشاعة الدمار والخراب وانتهاك الحرمات ، وهى سقطات أخلاقية لن يتسنى للعالم تجنبها لا بتشريع المزيد من مواد القانون الدولى ولا بإقامة محكمة عدل دولية ولا بدعم وتدعيم شرعية الأمم المتحدة بكل مؤسساتها ، لأن هذه الجهات جميعها سوف ترضخ فى نهاية المطاف لإرادة القوة مالم يتم تنمية احترام الأديان واحترام خالقها فى الضمير الإنسانى باعتبارها الضامن الوحيد والأكيد لسيادة قيم الحق والخير والجمال فوق قيم الغابة .

إذن فالأديان لا تقتصر فى أوامرها ونواهيها على دور العبادة فقـط وإلا لكانت تحمل فى طياتها أعراض الشيزوفرينيـا والازدواجية ، إذ أنها تنهاك عن الزنى داخل المعبد والكنيسة والمسجد ولكنها تبيح لك بمجرد مغادرتها أن تزنى بل وأن تأتى اللواط والسحاق باعتبارها من حقوق الإنسان .

ليست الأديان هكذا وإن كانت هكذا فمن المنطق والعقل ألا نعتنقها وألا نؤمن بخالقها ، ولكن الحق أنها ليست هكذا ولكننا جعلناها هكذا زيفـًا وبهتانـًا كى نبرر لأنفسنا سوء أخلاقنا وكى نخدر ضمائرنا عن مساءلتنا ، وأرى هذا التبرير والتخدير هما فى الواقع أكبر دليل على أننا نعـلم أننا على خـطأ كبير وهى مـصيبة كبرى ولكن ثمة ماهـو أكبر منها حيث إننا قــد نعجز عن فهم الأديان فهمًا صحيحًا أو قد نفهمها ولكننا نتعمد تجاهلها وتحـريف مرادها ثم قد لا نكتفى بهذا وإنما نتعمد نقلها أو ترجمتها للآخرين وفق أهوائنا فيسود الفهم الخاطئ وتتوارثه الأجيال جيلاً بعد آخر حتى يصير الخطأ عقيدة لايجوز تصحيحها أو مجرد مناقشتها باعتبارها الحق وما هى من الحق فى شىء لأننا حينما نفعل هذا نكون أشبه برجلين لا يعرف كل منهما لغة الآخر فجاءا بثالث يجيد اللغتين وافترضا فيه الأمانة ولكنه خانها حين قال الأول للثانى إننى سعيد بلقائك فما كان من الثانى إلا أن نظر للثالث كى يترجم له مقولة الأول وإذا به يقل له إنه يقول لك أنه مستاء من لقائك فما كان من الثانى إلا أن بصق فى وجه الأول ــ وهو فعل لا يحتاج إلى ترجمة ــ ثم ما كان من الأول إلا أن لطم الثانى على وجهه ــ وهو فعل لا يحتاج أيضـًا إلى ترجمة ــ ثم ما كان من الثانى إلا أن أخرج مسدسه وأفرغ طلقاته فى قلب الأول فأرداه قتيلاً ثم أعدم على جريمته وظل الجانى الحقيقى حرًا طليقـًا لم تدركه عدالة الأرض ولكن ثمة عدالة أخرى لايجب أن ننساها ولكننا ننساها بالفعل كما ننسى الأمانة .. الأمانة أيها الإخوة .. إنها الرسالة الكبرى التى سيسأل عنها من يعلم ومن لا يعلم .. فأما من يعلم فهل أداها أم لم يؤدها وأما من لا يعلم فهل جد فى طلبها أم تقاعس عنهـا.. فإلى متى ؟؟ إلى متى أيها الأحياء ؟؟ ألن تموتوا كما مات من قبلكم ؟؟ وماذا بعد الموت ؟؟ إننا بحاجة إلى ما يغيثنا مما بعــد الموت وهو فى كل الأحوال لن يكون اتباعنا للعلمانية من دون الحق الذى أتتنا به الأديان !!

لقد أخطأ الآخر إذن فى توجهه العلمانى الذى يرسخ فى الإنسان خشية القانون لا خشية اللـه ، رغم أن القانون هو منتج بشرى لا يفترض فيه الكمال لنقص من أنتجه ، من هنا كان لابد من تعديله بين الحين والآخر ثم تعديل التعديل ثم العدول عن التعديل والمعدل إلى قانون آخر عساه يتغلب على ثغرات الأول وهو ما لم ولن يحدث لأننا بشر ولا نملك كمال القدرة أو شمول النظرة ولكننا فى غيبة الأديان عبيد لأهواء نفوسنا وأهواء نفوسنا هى عجينة من الصلصال فى يد الشيطان الذى بمقدوره أن يوهمنا بأن العلمانية هى التقدمية وأن التقدمية هى الحضارة وأن الحضارة هى مانحن فيه من تخبط وضلال وضياع وهى الضمان لممارسة الحريات ، الحريات التى تبيح الحرمات وتنهى عن الفضيلة كما نرى فى الأزمة الشيراكية الفرنسية تجاه الرموز الدينية

التى تعنى أول ما تعنى بمحاربة الحجاب فى المدارس الحكومية الفرنسية داخل فرنسا وخارجها.. لماذا لست أدرى ؟! أليس الحجاب فرض إسلامى بل ومسيحى وإن لم يكن أليس فضيلة أخلاقية ؟! وإن لم يكن أليس حرية شخصية تدخل فى قائمة حقوق الإنسان التى يتشدق بها الغرب العلمانى ؟! وإن لم يكن أفلا ترقى فى أبسط الحالات إلى حقوق الإنسان فى ارتداء أزياء الجنس والخلاعة والسقوط وإتيان كل المحرمات ؟! فما بالنا أن الحجاب فريضة وأن السيد شيراك بتوجهه هذا إنما يجسد صورة من صور التعصب والعنصرية الدينية التى قد تؤدى إلى فتنة طائفية لايعلم مدى آثارها وتطوراتها إلا اللـه ، إذ من الطبيعى أن كل مسلم ومسلمة بل وكل معتنق لقيم الحق فى فرنسا وخارجها سوف يتساءل : لماذا يصر شيراك على حظر الرموز الدينية ــ أوما يعتبره رموزًا دينية ــ بما فيها الصلبان الكبيرة !! إذ ماذا يعنى لفظ الكبيرة ؟! وهل معنى هذا أن الصلبان الصغيرة ليست رموزًا دينية من وجهة نظر شيراك وبالتالى فهى لا تدخل فى دائرة الحظر؟! ثم ماهو المقياس الذى نحدد به إذا ماكانت الصلبان كبيرة أم متوسطة أم صغيرة ؟! ثم ماذا عن مختلف المظاهر والسلوكيات الأخرى التى تدل على ديانة صاحبها كالصلاة والصيام أو حمل مسبحة أوحتى الأسماء الشخصية ؟! أم أن السيد شيراك ينوى مستقبلاً منع الصلاة بالمدارس ومنع الصيام ومنع كافة المظاهر التى قد تكون ذات دلالات معينة وتغيير أسماء الطلبة والطالبات ذات

الدلالات الدينية وابتكار أسماء علمانية لم يسبق للبشر من كافة الديانات التسمى بها وفرضها بالقانون ؟! ثم لماذا يصر السيد شيراك على توجهه هذا فى المدارس الحكومية فقط ؟! وهل يعنى هذا أن المدارس غير الحكومية وكافة المؤسسات الأخرى من حقها ألا تحترم علمانية الحظر وألا تعمل بها ؟! إنها لمأساة كبرى لا راد لها إلا أن يتراجع شيراك عن توجهه هذا وأن يعلن للعالم أنه تسرع فعلاً وقولاً ، لأنه إن لم يفعل فكأنه يعلن للعالم أن العلمانية ــ وهو أعلم بها منى ــ هى مذهب عنصرى متخلف ورجعى وغير صالح للتطبيق فى أى مكان وزمان ..

ولقد أخطأت فرنسا بعلمانيتها وكانت مستحقة لنقدنا الغاضب ولكننا أيضـًا مستحقين لما أبدته حيال نقدنا من عدم اكتراث ولا مبالاة لأننا فى الكثير من أوطاننا الإسلامية نحظر ارتداء الحجاب فى العديد من الأماكن والمجالات ، لذا فإنه من موجبات الخجل أن ننتقد غير المسلمين بحظر الحجاب.

إذن فالحق أننا كبشر غير مؤهلين لوضع كتالوجات لأنفسنا التى لم نصنعها كما أننا مازلنا وسنظل نجهل الكثير والكثير من أسرارها وخفاياها وخباياها ، فنحن صنعة خالقنا ومن البديهى أن يكون الصانع أدرى بصنعته ، أما القانون فمن ذا الذى يدعى له الكمال ومن ذا الذى لا يعلم أن البشر يمكنهم مغافلته والتحايل عليه وتجاوز عقوباته بسلطان المال والجـاه ؟! إن كل ما نحتاجه نحن البشر كى نصحح مسارنا ومصيرنا هو أن نرى حقيقة أنفسنا لتكون البداية .

أما وقد أدينا ما للآخر علينا من حق النصيحة الصادقة فمن واجبنا تجاه أنفسنا وتجاهه أن نسجل له كل التقدير والإعجاب عما يملكه من جمال وحسن فى نصفه الأيسر والذى يتمثل فيما حققه من تقدم علمى وتكنولوجى هائل بجده واجتهاده لا بعلمانيته لنعود بعدها إلى حيث أمتنا الإسلامية والعربية التى تنفرد فى أغلبها إن لم تكن جميعها بقبح نصفيها العلمى والأخلاقى ، عودة أقف بها معكم أمام المرآة كى ننزع ما فوق وجوهنا من أقنعة مزيفة وقبيحة لنقف بعدها فى ذهول قد يعقبه الندم من فرط ما سنرى من جمال الحقيقة التى حرمنا منها أنفسنا قرونـًا طويلة وحرمنا الآخر من رؤيتها .

نحن أمة أوجب عليها خالقها وخالق كل شيء أن تلتزم كل قيم الحق والخير والجمال ولكنها التزمت كل قيم الباطل والشر والقبح فتوهم الناظرون إليها أن هذا هو الإسلام .. دين التخلف.. دين القهر والعدوان .. دين الظلم والجهل .. والحق أننا المسئولون عن نظرة الآخرين لنا وعن ظلمهم لشريعتنا التى تحملت نيابة عنا من التهم ظلمًا وبهتانًا ما هى أبعد عنه بعد السماء عن الأرض .

إن ما تم توجيهه إلى الإسلام من تهم ظالمة تحتاج لتفنيدها إلى كتاب مستقل ــ جارى الإعداد له بمشيئة الله ــ ولكننى سأكتب بتفنيد أكبر وأخطر هذه التهم ألا وهى أن الإسلام يحض معتنقيه على معاداة الآخر وإرهابه ، وتجدر الإشارة إلى أن رد هذه التهمة سيكون من آيات القرآن ذاته ، حيث تبين لى أنه لا توجد فى القرآن آية واحدة تحمل مايبرر هذه التهمة بل العكس هو الصحيح ، حيث يتضمن القرآن العديد من الآيات التى تنفى وتتنافى مع هذه التهمة الظالمة ، وقد رأيت أن أكتفى ببعض هذه الآيات على سبيل التوضيح والإثبات ، فهى دعوة إلى كل من شاء الحق أن يقرأ ما يلى :

(١) الآيات أرقام ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة البقرة ويقول فيها الله جل جلاله :

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

وأفهم من الآيات أن الله جل وعلا يقرر أن القرآن الكريم هو كتاب نزل بالحق من الله وأنه يهدى المتقين إلى ما فيه رضوان الله ، ثم انتقلت الآيات لتبين لنا بعضًا من سمات المتقين فأفادت بأنهم يؤمنون بالغيب وأنهم يقيمون الصلاة وأنهم يؤتون الزكاة والصدقات مما رزقهم الله وأنهم يؤمنون بالقرآن وما نزل قبله على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأنهم يعتقدون يقينًا فى أن وراء الحياة الدنيا حياة آخرة فيها ثواب وعقاب جنة ونار بحسب أعمالهم فى الدنيا ، لذا فإن الله يعدهم فى نهاية الآيات بأنهم إن فعلوا كانوا على طريق الهداية التى أرادها الله لهم وأنهم تبعًا لذلك سينالون حسن ثواب الآخرة .. ومن الآيات نفهم أن

المتقين (وهم أهل درجة من الدرجات العليا) من سماتهم الإيمان بالأديان السابقة .. أى أن المسلم الحق لا ينكر على أهل الكتاب كتابهم الصحيح الذى أنزل على أنبيائهم ورسلهم .

(٢) الآيات رقم ١٩٠، ١٩٢ ، ١٩٣ من سورة البقرة ويقول فيها اللـه تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وأفهم من الآيات أن اللـه جل وعلا يأمر المسلمين بأن يقاتلوا من اعتدى عليهم وألا يكونوا البادئين بالعدوان ، بل إنـه جل وعلا يحذرهم من العدوان على من لم يبدأوا بقتالهم باعتبار هـذا العدوان يوجـب كراهية اللـه لهم ، بل إن اللـه فى آية لاحقة يحثهم على إيقاف القتال إذا بادر من اعتدى عليهم بإيقاف إطلاق النار ، ثم يؤكد ذلك فى الآية التى تليها مشيرًا إلى أن القتال أحيانـًا يكون ضرورة يحـتمها ظلم الآخر وعدوانه على المسلمين لإسلامهم ، إذ أفهم من ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أنه تعالى يعنى الدين فى عمومه ولا يخـص الإسلام وإنما لكونه يخاطب المسلمين فإنه شاء لهم القـتال دفاعًا عن دينهم إذا اعتدى عليهم الآخرون مستهدفينه ، إذ أن الـدين للـه وليس من حـق أمة أن تعتدى على أمة لإكراهها على دين معين، خاصة وأن اللـه فى موقع آخر قال ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وفى موقـع ثالث حث الرسول صلى اللـه عليه وسلم أن يقول للكافرين بالإسلام ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ صدق اللـه العظيم

(٣) الآية رقم ٦١ من سورة الأنفال ويقول فيها اللـه تعالى:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أفهم أن الآية تحـمل أمرًا من اللـه جل وعلا إلى الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، وبالتالى فهو أمر إلى أمة الإسلام إلى أن تقـوم الساعة بأن يقبلوا الحياة فى سلام مع الآخرين

وأن يحترموا المعاهدات والمواثيق بصرف النظر عن موازين القوى وإلى أى الفريقين تميل فبمجرد أن يصدق الآخرين فى رغبتهم بإقامة السلام فنحن مأمورون بمسالمتهم ، ولكننى أفهم السلام فى الإسلام على أنه سلام أمة وليس سلام دول ، بمعنى أن يعم السلام كل أقطار الأمة وألا يكون سلامًا مجحفًا للحقوق ، وبتعبير اليوم أن يكون السلام عادلاً وشاملاً .

(٤) الآيات رقم ٤٦ ، ٥٢ من سورة العنكبوت ويقول فيها الله عز وجل:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢ ﴾

أفهم من الآيتين أن محاورة أهل الكتاب هى أمر مشروع وأننا مأمورون بأن نحاورهم بالتى هى أحسن أى ملتزمين حسن الخلق .. حريصين على المودة من منطلق إيماننا بكل الرسالات والرسل وعملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « **من آذى ذميًا فقد آذانى** » ، ومن منطلق أن الله هو الشاهد علينا وعليهم وهو الحاكم بيننا وهو الفاصل بين الحق والباطل ، وأفهم أن الحكم والفصل ليس مفوضًا للبشر لكى يفرضوه بالقوة وإنما الأمر كله مرده إلى الله ، ولكننى أفهم كذلك من الآيتين أن الله حريص على كرامة وعزة المؤمنين وأنه أمرهم بالمودة والحسنى مع من لم يظلمهم .

(٥)الآيات ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة ويقول فيها الله عز وجل :

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ ﴾

وأفهم من الآيتين الكريمتين أن الله يؤكد على ما سبق وأباحه للمؤمنين فى علاقاتهم بأهل الكتاب من الحرص على المودة وإقامة العدل وعدم التمييز العنصرى بين

المسلم وغير المسلم فى أى منحى من مناحى الحياة مالم يبادر بظلمنا وقتالنا دون وجه حق لأنه إن فعل حرم علينا موالاته وحسن معاملته وهو أمر منطقى فى حق من يعتدى علينا ظلمًا.

ثم دعونى أختتم بآية قرآنية أراها مسك الختام رغم كونها خارج منهج هذا الكتاب، فقط أردت أن أختتم بها لما أجده فى نفسى من متعة فائقة كلما قرأتها، إذ لا أكاد أنتهى منها فى كل مرة إلا ووجدتنى أردد فى غير تعمد لفظ الجلالة ((اللـه)) اللـه أيها الإخوة .. اللـه أيها البشر .. فإلى اللـه فى سورة النور الآية رقم ٣٥ حيث يقول جل وعلا :

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ ﴾ صدق اللـه العظيم